الجزء الخامس
الفصل العاشر

- ما رأيك يارجاء في نهار نقضيه في طواف الغوطة؟ أمشتاقة أنت لرؤياها؟ سألتها سلمى في بكور صباح مشمس ندي وهما يتجولان بـين الـصنوبر ويسرقان ضاحكتين ماسات الندى بشفتيهما عن الأزهـار.. وتهلّـل وجـه رجاء:
- ونرى الشجر الراقص الدبكة، والنهرين المتعانقين، ونسمع أغاريد الطيور غير المنظورة.. ما أروع هذا! متى، متى؟
- اليوم ان شئت.. فمن تختارين لنأخذ معنا؟
- الصغيرات الثلاثة.. فلن يزعجننا..
- حسنا.. في جهة الربوة ودمر أماكن نزهية رائعة جدا، حيث تكثر الشلالات الصغيرة.. وما يجب أن يفوتك الإستمتاع برؤياها.. وسنشوي اللحم هنـاك عند إحدى الشلالات التي آثرتها بحبي.. وسيكون يومـا حـافلا بالنـشاط والحيوية..
- هيا هيا! ها هو ذا الطبيب قادم من المبنى فاستأذنيه..

السيارة تميس على الطرق المشجرة، ومذياعها يبعث بأنغام موسيقى إسـبانية راقصة، والفتيات الصغيرات يصفقن ويغنين.. وكانت كبراهن في الثانية عشرة من عمرها تتقن بضعة أغان، وتعتز بصوتها كما تعتز بجمالها، ولكـن مـن تتركها تكمل أغنية واحدة.. وحاولت رجاء الغناء بصوتها الـساحر، ولكنهـا شعرت بعجزها، وترقرقت عيناها الناريتان بالدمع، وتلاحقت أنفاسها..

- قريبا، قريبا يا رجاء وسيشجي صوتك الطيور في أعشاشها.. الصحة تعود ولكن ببطء.. وأنت تتحسنين والحمد لله يوما بعد يوم.. أنظري الى هـاتين الشجرتين النحيلتين المتعانقتين بمن تـذكرانك؟ ضـحكت رجـاء وقالـت ضاحكة:

- بغرام زكروك وزكروكا.. العجوزين الفانيين يتهاديان على الطريـق فـي بيت جالا..
- حزرت.. كانا دائما معا جنبا الى جنب وذراعاهما متعانقان وقد نيفا علـى المائة.. أتمنى لك مثلهما عمرا مديدا..
- لا، لا يا سلمى، لا أحب أن أبلغ أرذل العمر!..
- في ظلال الحب تحلو الحياة في أي عمر!
- كم كنت أضحك منهما أنا ورفيقاتي.. وأظنهما كانا يضحكان منا.. فمـاذا نفهم نحن في شؤون الحب؟ كانت قرقرتها كـدرزة الماكينـا، وضـحكته كفوتبول منفس.. وكانا سـعيدين رغـم شـعورهما الـشائهة ووجهيهمـا المخددين.. ولما ماتا معا إثر نزهة قاما بها في يوم رطـب، بكيـت أنـا ورفيقاتي.. صمتت رجاء ثم قالت:
- ان مت يا سلمى فادفنيني قرب شلال، أو قرب النهرين المتعـانقين.. كـم أخشى الأماكن الموحشة!

نظرت اليها سلمى بعتاب معنّف:

- أهذه رجاء التي سترضيني بما سيطرت عليه من أفكارها السوداء؟ أشـدك الى الحياة ولكل ما يقوي آصرتك بها، وأنت تتعسين قلبي بهـذه الأفكـار السوداء؟ لقد اكتشفت سرا بنفسي.. أن الإنسان يحيا بقدر ما يعمر الـشوق قلبه ليحيا.. بهذا يعزز غريزة الشفاء!.. المرض ليس طبيعيا.. إن هـو الاّ دخيل تغلبه غريزة الشفاء الكامنة فينا، إن ساعدناها نحن بلهفتنا على البقاء وأملنا في الشفاء.. وطوقت رجاء عنق أختها:
- الأمل.. نعم علي أن أجعل الأمل نور حياتي.. قبلتها سلمى:
- آه يا حبيبتي.. انك ان عملت على انقاذ الغالية رجاء، أنقذت قلب سلمى من أن يتحطم، وربما، بل على الأرجح قدمت للحياة إسما خالدا..

وطوقت رجاء عنق أختها دون أن تتكلم..

- أتعلمين بماذا كنت أفكر يارجاء؟ أن أكون فرقة كشفية في المصح..
- ولكنك ستتركين المصح قريبا..

- أعلم، سأبقى أديرها بعد خروجي.. سأسعى جهدي للبقاء في دمشق.. على كل حال ما يجب أن يمنعنا التفكير في المستقبل أن نبدأ.. ستكون أهـدافي ثلاثة: العمل على تهذيب الناحية الخلقيـة، وبـث الأمـل فـي النفـوس، والترفيه.. واذا استطعت أن أقنع الدكتور بأن يبيح لنا الإستفادة من سـيارة المصح في نزهات أسبوعية، يمكننا الترفيه عن ثمانية كل مرة..
- فكرة عظيمة يا سلمى.. ولكن اللباس؟
- كثيرات عندهن تنورات كحلية أوسوداء، وقمصان بيض.. ولدينا أنا وأنت مجموعة نوزع منها على الصغيرات.. هذا أمر يدبر، ولن نحتاج الاّ الـى ربطات العنق وحبال الكتف والأشرطة وهذه لا تكلف شـيئا.. سأسـتعين بالكتب وربما كان عند أبو فراس كتابا فهو كان في الماضي كشافا.. على كل حال سنحتاج الى تحوير، ونكيف الحركة بما يلائم وضعنا.. وننتخـب من الألعاب ما ليس فيه إرهاق، ومن النواحي الثقافية ما لا يجهد الأدمغة..
- ما رأيك أن نستعين بالأب فيلار فتكتسب الحركة صفة رسمية؟
- حسنا.. نستعين به بعد أن نشكل الفرقة وننظمها..

دخل الدكتور غرفة سلمى في دورته الصباحية واذا به يفاجأ برجاء والفتيـات الثلاثة يرتدين جميعا لباس الكشاف الكامل، وقد وقفن صفا واحدا يسلّمن عليه السلام الكشفي.. وضحك:

- ماهذا؟ وابتسمت سلمى:
- ما رأيك في فرقة تكون على هذا الغرار، فتعمل على تهذيب الخلق وبـث الأمل والترفيه؟

وما كان عسيرا عليها أن تقنعه بالفكرة.. ولم تنقض فترة طويلة حتى جمعـت خمسا وعشرين من الفتيات والشابات والناقهات انخرطن في سلك الكشافة..

وكان أحب الفترات لرجاء تلك التي تجتمع فيها الفرقة الكشفية في شبه حلقـة على الشرفة حين يرخي الليل سدوله وقد وسدت رأسها حجر أختها، وأغمضت عينيها تستمع الى القصص ذاتها التي قصتها عليها سلمى في طفولتها.. وكـم

جلجلت الضحكات لألعاب سرقة الذنب والأعمى والقناني وضـارب الطبـل، ولمن الكرسي الأخير، وغيرها!

وأما النزهات فكانت أبعث برامج الفرقة على الترفيه، ولكنهـا كانـت تثيـر المشاكل.. وتضطر سلمى لتقف موقفا حازما من نضوب الصبر عند بعـض الفتيات..

كانت رجاء سعيدة ويكفي سلمى أن ترى الإشراقة تعلو محياها.. لقـد شـغل وقتها وتورطت بالإستدانة لتغطي نفقات العلاج، ولكن لا بأس ستعمل وتفـي دينها من أبي فراس.. ويهمها قبل أن تغـادر المـصح أن توثـق الأسـباب والصداقة بين رجاء والمريضات حتى لا تشعر بفراغ وتميل الى الإنعزال..

* * *